مجلة النكبة التي لم تنتهِ

نحو عودة لاجئين فلسطينيين

العدد ٦، أيار ٢٠١١

عشرة أيام عودة

أو جانب من يوميات الولادة الجديدة لفلسطيني في الدياسبورا

حسين شاويش-برلين

٢٠٠٩/١١/٢٦

بدأ كل شيء بإيميل: "يسرّ معهد غوته في رام الله أن يدعوكم للقراءة من كتابكم ..."

نكصت فوراً إلى طفل في العاشرة يتفاجأ برؤية أمه بعد غياب سنتين. صحت، صفّقت، ركضت إلى المطبخ لأخبر صديقة كانت تحضر الشاي هناك. وجعلتها تقرأ الدعوة بصوت عال. لأتأكد أن عينيّ ما زالتا في هذا العالم.

وفجأة اختفت رائحة الدم التي استعمرت أنفي طيلة نصف قرن والتي كانت تهبّ من ذلك المذبح المقدس الهائل الذي لا يقبل ضحايا غير بشرية وبدأت أشم الزعتر البري والميرميّة.

العين قرأت: رام الله. القلب قرأ: القبّاعة. لقد حسمت هذه الدعوة تردداً طال كثيرًا. ففي اليوم الذي وضعت فيه الجواز الألماني في جيبي بدأت فكرة زيارة فلسطين تعشّش في رأسي وبدأت "أناضل" ضدّها.

١٢/١٠

سلة الإيميل من جديد. إيميل "وفاء" - منسقة البرامج في معهد غوته في رام الله- يمحو بنفسه كل ما تبقى من إيميلات. تقرأ: "أبحث في الانترنت عن رحلة طيران مناسبة ولا تحجز قبل أن ترسل إليّ مجموعة خيارات. ضرورات التوفير معلومك!"

وكي تتخلّص من التنميل الذي هجم على المخ تبدأ فعلاً في البحث عن رحلات الطيران في الإنترنت. ثم يترك التنميل مكانه لنوع من السلام الروحي الغريب. بعد قليل يعود مخّك إلى الثرثرة:

- "تريد أن تكون العودة على السويس إير أم التركش إيرلاين أم طيران ال...؟"

- توقف هذه الهجمة من التهكّم على الذات والتاريخ.

- لم لا؟ - تقول لنفسك- كنا نقول "قطار العودة" أيام أن كانت الطائرات مركب "الأكابر"، فلا ينتظر من مواكب العائدين إلا ركوب أقدامها، أو القطار. وكنا نقول يمر قطار العودة من محطات إجبارية هي عمّان، ثم أصبحت لفترة وجيزة جداً دمشق، ثم كادت تستقر في بيروت، ثم لم نعد نستطيع متابعته إذ أنه طار في عدة إتجاهات منها تونس ومنها الخرطوم ومنها ما هو في عكس الاتجاه، أي إلى الشرق كبغداد أو إلى الجنوب كصنعاء مثلاً. فقررنا أن نرمي ببطاقات القطار إلى أول سلة مهملات. وقررنا أيضاً أن العودة يجب أن تكون قد لاحظت صعوبة ذهابنا إليها فعليها إذن أن تأتي هي إلينا.

وهذا هو ما حصل بالضبط.

نعم هاهي العودة تأتيني بقدميها! لقد انتظرت وانتظرت فلما فرغ صبرها قررت المبادرة الشخصية. ولما كانت تعرف جيداً كم تحرّقت إليها في هذه السنوات الخمسين العجاف، فقد قررت أن تختفي خلف دعوة بريئة من معهد غوته في رام الله.

١٢/١٤

- موبايل جديد خالٍ من الأرقام وجواز جديد خالٍ من ختم العواصم العربية، أو أنه خاصٌ بهذه الرحلة.

هذه كانت نصيحة عدد ممن استشرت. أضاف بعضهم تفاصيل أضافت إلى صورة الشيطان الصهيوني ذي اللحية المدببة الطويلة والأنف الذي يكاد يساويها طولاً سوطاً في اليد وذنباً في المؤخرة.

وعادت قصة قطار العودة المستحيل إياها. عمان ثم رام الله. ثم القبّاعة طبعا. هكذا كقفزة البهلوان مع تخطّي أي حاجز إسرائيلي، دون النظر إليه طبعاً. سألت من جرب فقال لي دعك من هذا الغباء. تحقيق واحد خير من اثنين أو ثلاثة، من يدري؟. وهكذا قررت متمتعاً بكامل قواي العقلية أن أهبط في تل أبيب.

١٢/١٥

صباح جديد. وهأنذا مع كل صباح أشطب مع اليوم السابق في مفكرتي المعلقة على الجدار قسماً من "السكرة" لتحتل مكانه في رأسي "الفكرة" التي لم تعد تكتفي برأسي الصاحي وبدأت تغزوه نائماً. ويا لها من غزوات.

إنه موضوع واحد متسلّط وعنيد حتى ولو حملته كل ليلة قصة مختلفة. إنه قصة السنوات الخمس الأخيرة من حياة أبي التي قضاها يبكي "القباعة" بعد أن أدرك أنه سيموت دون أن يراها حتى ظن الناس أنه خرف وأخذوا يتأسّفون لنهاية رجل عاقل. كانت هذه الأخبار تأتيني من مخيم اليرموك عن طريق إخوتي هناك الذين يشاركونه الدار. فقد كانت زيارتي لسوريا ممنوعة، وما تزال.

ليس جديداً أن يتذكر أبي القباعة، فأنا لا أكاد أتذكر يوماً واحداً من أيام طفولتي لم تكن القباعة فيه موضوعاً لحلم رآه أو رأته أمي في الليلة السابقة. حتى كنا – نحن الصغار- نكاد نسبح في عين المقلد أو نملأ بطوننا من تين ورمان خلة العين أو وادي اللوز، هذا إذا لم ينهرنا جدي حمادة الذي كان يخافه الكبير والصغير. كل ذلك كنا نراه بعيونهم التي كانت ما تزال تناضل مع قهوة الصباح لتودّع القباعة وتعود إلى مخيم اليرموك. ولا شك أنهما ماتا قبل أن ينجحا في ذلك الوداع.

لكنهما قبل أن يموتا ورّثاني هذه المجموعة من الصفات التي تعبا كثيرا في التأقلم معها والنضال ضدها في الوقت نفسه: ألا تستقر في أي مكان تسكن فيه، وألا تنسى أنك من القباعة الواقعة في قضاء صفد، وأن تستعمل ما تستطيع من التكنيكات البهلوانية لتتوازن في النقطة

المتوسطة ما بين اليأس من العودة إلى القباعة والشوق القاتل للعودة إليها. يمكن أن أضيف إلى هذه الصفات الموروثة صفة اكتسبتها بجهدي الخاص وهي نوبات من كراهية هذه القباعة التي أحملها على كتفيّ أينما ذهبت دون أن أكون قد سبحت مرة واحدة في عين من عيونها الكثيرة أو أن أكون قد أكلت تينة واحدة أو رمانة واحدة مما يفترض أنه كان مشاعاً للعابرين في طرقاتها أو على سياجاتها.

سألت نفسي إن كان القلب بوصلة كافية. قالت لا. فقررت سؤال عبد الله الرفاعي وهو إحدى الصفصافات المعمرة التي ما زالت حيّة من أيام زمان، وليس هذا هو السبب الوحيد، فالمقابلة مع الرجل حول تاريخ القباعة قبل وخلال النكبة كانت موجودة على صفحة التاريخ الشفوي للنكبة في الشبكة العنكبوتية. سمعتها ثلاث مرات ورسمت لنفسي خريطة للقرية بأوديتها وعيونها وتينها. ورغم أنني حفظتها غيبا بسبب التكرار فقد حشرتها في الجيب الداخلي للسترة وكأنها كنز تطلبه كل مافيات العالم.

عدت إلى الشبكة العنكبوتية نفسها أسألها عن خطوط الطيران المختلفة التي تمر بتل أبيب. كل شيء إلا طائرات إل - عال طبعاً. وتمشياً مع الحماس الأردوغاني اخترت الخطوط التركية. حجزت "عنكبوتيا" وحوّلت نسخة من تأكيد الحجز على إيميل غوته الذي كان يقضي شتاءه تلك الأيام في رام الله.

طلبت من الجنّي الإلكتروني إياه أن يحملني إلى فلسطين. جاءت الخارطة الأولى ثم الثانية، قرأ القلب بالعربية حيفا وغزة والقدس، لكن العين كانت كل مرة تشكو من وخز المسامير المتلوية التي لا بد أنها الحروف إياها، والتي كتبت فيها جماعة تومر مجلتهم الجميلة. قلت للجنّي: هات لي من يستطيع نزع هذه المسامير. وجاءت صبية وجاء رجل أكبر سناً ثم جاء آخرون وكلهم من العائلة الجنيّة "يوتيوب" وهكذا تعلمت قراءة فلسطين بالعبرية.

١٢/١٨

- شو عندك اليوم مساء؟

- لا شيء.

- تعال نتعشى سوا. ستأتي صديقة لمنى من الأرض المحتلة، تريد أن ترانا. إسرائيلية ولكن منى تقول إنها أقرب إلى ربعنا.

والعشاء في بيت "شيخ الرفاق" في برلين، الصديق الأزلي زكريا يعني دائماً تجديد الحلم بثورات جديدة أو قبرها. كان يستضيف "تـل"، وهو اسم يناسب جغرافياً مدينتها التي ليست إلا تلالاً تشرف على صحراء. مما جعل البشر يعتقدون أن الله لا بد أنه يسكن غير بعيد عنها فزرعوها معابد ومذابح وسمّوها قدسا. تلك المرأة اللطيفة احتجت احتجاجاً شديداً عندما سمعتني أقول لزكريا لدى السلام عليه: "هل وصل العدو الصهيوني؟". طبعاً لم أكن أتوقع أنها تعرف العربية. بعد ساعتين عرفت أن زوجها فلسطيني وأن ثمة شيئا اسمه "زوخروت" وأن هذه الأخيرة هي منظمة صغيرة تساعد كل لاجيء فلسطيني يود أن يتعرف على قريته في "فلسطين الثمانية وأربعين". وكان من جملة نصائح تل: "حاول أن تمارس التأمل كيوغي مجتهد عندما تجلس أمام المحقّقين في المطار".

من يجرؤ بعد اليوم أن يدعي أن العالم ليس مليئاً بالصدف السعيدة وأن واحدة منها اسمها تل والأخرى زوخروت. دون أن ننسى طبعاً معهد غوته.

١٢/٢٠

في الساعة الثانية عشرة جاء الرد على إيميلي الذي أرسلته في التاسعة، والذي تضمن اسمي ورغبتي في زيارة مسقط رأس الآباء والأمهات. كتبت بالانكليزية فكل شيء كان يوحي بأنني أراسل قوماً عبرانيين. وجاءني ردان واحد بالعربية والآخر بالألمانية! وإذا كان من المفهوم أن تكتب لي رنين العاملة في زوخروت بلغة قومها وقومي، فمن أين جاءت الألمانية؟

كانت المانية "تومر" توحي بأن علاقته بها ليست قديمة. كتب لي: "أنا من زوخروت، وقد قرأت رسالتك. وباعتبار أنني سأكون في برلين في بداية كانون الثاني مع زوجتي الألمانية، فقد فكرت بأن نرى بعضنا هناك، إن كنت لا تمانع طبعاً. فلا شك أن لديك ألف سؤال"

١٢/٢٢

- سأرسل لك نسخة عن الدعوة تحمل توقيع مدير المعهد. أنصحك بطباعتها بالألوان. سنحجز لك في " أنكرز، سيوت هوتيل" حيث ينزل مدعوّونا عادة. وهو معقول جداً ومريح. أخبرني كم ستبقى في رام الله. نحن نحتاجك يوماً واحداً، أما ما تبقى فهو شأنك. بالمناسبة سينتظرك أبو العبد بالتاكسي على باب المطار وينقلك إلى رام الله.

كان هذا ما احتواه أحد آخر إيميلات وفاء. وقد كانت مصرة على الكتابة بالألمانية. لم أعرف حتى الآن إن كان ذلك بسبب العادة، كونها نشأت في ألمانيا أم هو لزوم العمل في معهد يحمل اسم أمير شعراء الألمان ووظيفته نشر الثقافة الألمانية في العالم، أم أنها ببساطة لا تثق بكتابتها العربية.

اعتبرت من جهتي أن قصة الطباعة الملونة هي من فذلكات الجيل الجديد التي لا تهمني وهكذا اكتفيت بطابعتي القديمة، أبيض وأسود.

٢٠١٠/١/٥

برلين- مقهى هانيبال، قسم المدخّنين (يكاد يكون كاريدورا جانبياً يتثاءب من خلف ظهر القسم الرئيسي)

تومر هو شاب (٣٥) متزوج من ألمانية اسمها ميكه، وهكذا فهمت سر ألمانيته. أما "زوخروتيه" فسببها تحمّسه لقضية الفلسطينيين، وربما كان أيضا إحساسه بالذنب تجاههم، كونه يعيش في الواقع على أرضهم التاريخية.

هل كان اختيار الرمز القرطاجي صدفة؟ أم أن السبب هو موقعه المركزي، أم كونه على الطرف التركي من كرويتسبرغ، الحي الذي يكاد يصبح فيه الألمان أقلّيّة مضطهدة؟

التقينا وكان يصطحب ليس فقط خريطة لشمال فلسطين، بل ومجلة منظّمتهم التي تحتوي استطلاعات حول القرى العربية المصادرة أرضها. تأمّلت في الصور قليلاً. في صفحتين متقابلتين صورت القرية نفسها في عدة مراحل زمنية وكيف تم مسح وتدمير كل معالمها. ورق الطباعة البسيط وغير المصقول والذي ربما يعود إلى فقر المنظمة كان سبباً إضافياً لحماسي للمجلة. كان كل ما فيها بالعبرية. الاستثناء العربي الوحيد كان كلمة "سدق" وهو اسم المجلة مكتوباً تحت العنوان العبري وبجانب ما يماثله لفظاً بالإنكليزية. بينما كنت أقلّب الصفحات كنت أسمع اللغة العبرية تعلن براءتها من تاريخ طويل. كانت تقول لي: "أنا أيضا قد أكون لطيفة".

١/١٣

مناسبة عابرة تقودني قبل يوم واحد من السفر إلى محل فوتوكوبي في المدينة. أتذكرقصة الدعوة، وأن الأفضل أن تطبع بالألوان. قلت في نفسي: من يعرف؟ وأعدت طباعة الدعوة ملوّنة هذه المرة. أعجبني الخط الأخضر الذي وقّع به مدير المركز فقررت أن أغلّف هذه النسخة، من باب الحفظ لا أكثر ولا أقل. بعد التغليف لم يعد من الممكن تفريقها عن الأصل.

كانت تلك الدعوة تتضمن إضافة إلى الموضوع الرئيسي، القراءة من كتابي والمشاركة في النقاش التالي لها، تفصيلاً لم أطلبه ولكنه كان شديد الفائدة كما سيأتي، ومفاده أنني سأتنقل في المناطق الفلسطينية بما فيها القدس. كان نوعاً من الحدس الصائب لا تتمتع به عادة سوى النساء، تماماً كفكرة الطباعة الملوّنة.

١/١٤

كانت الطائرة الصغيرة على الشاشة التي تنتصب أمام المقعد تشير إلى أننا نطير الآن فوق قبرص. وكنت فعلاً أطير. بل إنها المرة الأولى التي أحسست فيها أنني أنا من يطير لا الطائرة. هي كان مسارها معروفاً واضحاً يمكن رسمه على الورق. بل إنه مرسوم أصلاً على هذه الخارطة التي أراها على الشاشة الصغيرة. أما أنا فما زلت أهرب من حل مشكلة أبي وأمي نفسها. لم أودع فلسطين بعد، كي أستطيع دخول إسرائيل. تل أبيب تسمعها أذني يافا، وعندما قالوا أن الطائرة ستهبط في مطار بن غوريون لم تتعرف مخيلتي إلا على مطار اللد، وسرعان ما تذكرت الجيش الأحمر الياباني.

في مقاعد ليست بعيدة سمعت اللهجة الفلسطينية وفي المقعد المجاور سمعت العبرية. كان قلبي مصراً على أنني ذاهب إلى فلسطين التي يتكلم جزء منها، مؤقتا، العبرية.

حاولت أن ألهي القلب بتذكر ما رأيت في ترانزيت اسطنبول، لكن اللعبة فشلت. كنت أحاول التخلص من أنياب ضمير مزروع بفكرة "اللاتعامل مع أي شيء إسرائيلي مع استثناء وحيد هو مفاوضتهم على طريقة خروجهم من فلسطين". هذه المفاوضات لم ترد في نص الدعوة التي أحملها. فما العمل؟ قال القلب للعقل: "ليدع كل منا الآخر بحاله"، وهكذا استطعت أن أتفرغ لاستقبال أول أحجار "يافا القلبية" عبر نافذة الطائرة التركية.

وبدأ الهبوط.

كنت آخر من خرج من الطائرة. شل قدميّ صراع القلب مع العقل. وشلهما أيضا الخوف من التحقيق القادم بعد لحظات. وشلهما أيضاً وأيضاً الإحساس بالخروج النهائي من الحياة العادية والسقوط الحر في اللامتوقّع. فلم العجلة؟

أين ولدت يا حسين؟

قلت له.

في تأمّلاتي التالية أعدت السؤال على نفسي وكأن الجواب غير موجود في جواز السفر الألماني. ويا لها من أجوبة. فمن يعرف كم مرة تولد الروح وفي أي من بقاع الأرض تعيد ولادتها؟ روحي بالذات أعرفها، إنها تكاد تولد من جديد لدى التعرف على كل امرأة جديدة. لكن الموظف في مطار بن غوريون أثبت لي أن ما هو مكتوب في الجواز هو بلا شك أفضل الأمكنة للولادة.

أين تقع هذه "السحم الجولان"؟

قلت له.

فيما بعد أقنعني الأصدقاء أن ذلك الغبي اعتقد أنني درزي مهاجر من الجولان.

ماذا جئت تفعل في إسرائيل؟

أخرجت الدعوة المغلّفة ذات التوقيع الأخضر بكثير من الفخر وشرحت له مضمونها.

لم يسأل أكثر ولم أجب أكثر. قال: انتظر هناك. وانتظرت.

بعد عشر دقائق فارغة كقلبي آنذاك، أخبرته أن سائقاً ينتظرني في الخارج وشدّدت على كلمة "سائق". قال: سيأتون قريباً. وجاؤوا، وكانوا امرأة في الأربعين. أحسست بنوع من الارتياح، فالمرأة تمتص العدوانية من الجو كشفّاطة الدخّان في مقهى مكتظ. كانت تتكلم معي الانكليزية تماما كزميلها السابق الذي يبدو أنه لا يعرف من العالم سوى أن كل ما اسمه جولان يجب أن يكون في الهضبة إياها. وتماماً كزميلها السابق كانت انكليزيتها سبباً كافياً لتجعلك تثق بعلمك باللغات. بعد انتظار جديد في قطاع صغير فيه غرفتان ترى كل ما يجري فيهما وأنت على كرسي الانتظار، استدعتني ثانية وجلست خلف الطاولة مع زميلة لها.

استمرت المبارزة الكلامية أكثر من نصف ساعة بقليل لكن أغلبها كان صمتاً. كانت تلك هي الاتفاقية التي عقدتها مع قلبي في الطائرة.

مما خرج عن قاعدة الصمت:

ماهي مهنتك؟

Physician and Psychologist

ماذا يعني "فيزيشان"؟ سألت زميلتها فقلت أنا لها: يعني Doctor

تلفنت وتحدثت بالعبرية، لكنني فهمت الكلمتين التاليتين وهما على كل حال لاتينيّتان: دكتور في الفيزياء.

فيما بعد قال لي الأصدقاء أنفسهم أن سني المتقدمة وتلك "الرقية" ذات التوقيع الأخضر كانا وراء النجاة من ست أو سبع ساعات تحقيق "طبيعية".

خلال تلك الدقائق الأربعين دق قلبي باب الصدر أربعين مرة ليتحدث العربية وأخرسته. لكنني ما كدت أتجاوز بوابة الحقائب وأرى اسمي بالعربية على لوحة كرتون صغيرة يحملها من يجب ان يكون أبو العبد، حتى مزق القلب قفصه وبدأ بالصياح.

أنت في فلسطين.

أنت في فلسطين.

أقبلت على الرجل بما يشبه الهجوم. مسلّماً ومثرثراً. أحد ما يجب أن يفرح معي. ويبادلني الحديث بالعربية عالياً. علّ ذلك يقنع هذه الحيطان بأن تتعرّى مما عليها من اللغة الغلط.

لكن فلسطين ظلت تكتب بالعبرية حتى وصلنا رام الله. اتبعنا طرقاً لا يعرف أسرارها إلا سائق كهذا، يعرف طريقه لا بقراءة أسماء الشوارع، كزملائه في العام كله، بل بتلقّف الأخبار حول آخر الحواجز، الثابتة منها والمتحركة.

كان يتحدث باستمرار. وكنت مشغولاً باندهاش تحول إلى ما يشبه الخوف. كدت أصيح به: أين فلسطين؟ كان كل ما حولنا أسلاك شائكة تحيط بالتلال الصغيرة التي تحوّلت إلى قلاع أسماؤها أكثر تشويكا لقلبي من أسوارها. مرّ بنا وحشان من حديد رأيت في عيونهما الكثيرة فوهات بنادق. قال لي السائق بلهجة عادية جداً: دوريات خاصة بحراسة المستوطنات.

هل تستطيع رام الله أن تبلسم كل هذه الدمامل؟

٢٠١٠/١/١٥

لم أستطع النوم رغم الفراش الوثير إلا بعد آذان الصبح. كنت أتقلّب وتتقلب معي صور النهار. وفي التقلّب الأخير كنت هندياً أحمر غادر أمه الأرض بعد الحرب بقليل وعاد أخيراً ليكتشف أن ذوي الوجوه الشاحبة قد قطّعوا جسد أمه إلى خمسين قطعة وتركوا لقومه إصبعاً واحدة منها ليعيشوا عليها وبها.

أفقت على فلسطين تدعوني إلى مشوار. كان الفندق يقع على كتف واد. خرجت إلى الهواء الطلق. تلال، تلال، تلال. أرسلت العين في الآفاق الأربعة. صبّحت على أول "ختيار" رأيته. وسارعت إلى الاحتجاج عندما سألني عن أصلي. ألا تقول كل شعرة فيّ أنني فلسطيني؟ قلت له: إنني عائد إلى الوطن بعد غياب طويل. القلب احتج بدوره، ولكن عليّ أنا هذه المرة. قال لي: غبت أنت أما أنا فلم أغب لحظة واحدة.

حدثني الرجل عن أرضه الصغيرة هذه، وهي الجارة المباشرة للفندق، وكيف عرضت عليه ملايين لبيعها فرفض رغم أن "الأولاد" كلهم تقريبا في كندا. إنها العشرة الطويلة مع أشجار الليمون والدراق التي زرعها بنفسه. وفهمت أن هذه الأشجار هي أولاده أيضا.

كانت طريقة لفظه لحرف القاف كافية لتمسح أحزان الامس كلها.

أحسست أن "ذوي الوجوه الشاحبة" قد فشلوا في هذه على الأقل: أن يحرمونا من أن نلفظ القاف على مزاجنا.

متسكّعا باتجاه قمة التلة، أي مركز المدينة، شربت شاي الرصيف وقهوته عشر مرات، ومع كل "كاسة شاي" أو فنجان قهوة كنت أشرب قصص الشباب الذين ينتظرون إما الزواج الذي ينتظر بدوره فرصة عمل لا تأتي أو تراجع "عم المستقبل" عن طمعه "شو أسرق يعني؟"، وإما زوال الجدار الذي "سوّد عيشتنا".

وزحف جدار آخر إلى قلبي. تذكّرت مظاهرة شاركت بها في برلين ضد هذه الحيّة الاسمنتية المكهربة. هناك كان الجدار في الرأس. شيء يشبه المفهوم المجرد. رغم الألف صورة التي كنا نرفع بعضها ليراها الألمان. كان خلطة مفاهيم تتضمن الفصل العنصري وسرقة الأرض.. الخ، لكنّه لم يكن حرمانا من الزواج ولا من العمل ولا من الذهاب إلى المدرسة.

قبل هذه المغامرة كنت أعتقد "أن شاحبي الوجوه" يريدون اختصار فلسطين إلى منطقة ما خلف الجدار كما اختصروا الأم -الأرض لأخوتنا من

السيوز والأبَاتشي إلى معسكرات جماعية. مروان وطارق وأحمد، الذين شاركوني التسكّع في رام الله، أقنعوني "أنهم" يريدون قبرها تحت الجدار. ففلسطين بالنسبة لهؤلاء الشباب هي العمل والعروس والمدرسة.

ولكن من يقنع القلب؟

غادرت مروان بعد أن وعدته بلقاء آخر أشرب فيه القهوة مع أبيه، تماماً كما وعدت أبو محمود جار الفندق بالقهوة نفسها، وسأعد كل من سأراه بالقهوة إياها. وسأعتقد أنني سأستطيع الوفاء بكل هذه الوعود المستحيلة. لكن تحسين جاء أخيراً. واستطاع أن ينسيني كل تلك الوعود. الطريقة التي اتبعها في سبيل ذلك كانت مقنعة جداً. جاءني معه بفلسطين بشكلها الطفل، أبنائه الثلاثة، كانوا في سيارة تقودها فلسطين بشكلها الأنثوي، زوجته. ودرنا حول رام الله بالسيارة واستطعت أن أرى بعيون هؤلاء الخمسة مشهداً لحصار مستحيل. مستوطنون جاؤوا مع الريح إلى التلال المجاورة وكأنهم يريدون محاصرة المدينة. وفلسطين تعلم صغارها بديهية أن الجبل لا تهزّه الريح. في اللهجة القروية التي يتكلمها، مازال يصرعلى السكن في قريته بيت دقو وقطف كرومها، وفي حساسيته لجماليات البلد ورصده لتغيراتها كتابة وسرداً، ذكّرني تحسين يقين برسول حمزاتوف وعلاقته بداغستان. لم يكتفِ بأن جعلني أحس بأننا ننتمي للأم نفسها، بل أصر على أن نتحسسَ معا ما تبقى من جسد الأم المقطّع. رانية زوجته كانت السبب الوحيد الذي يعطي للحلم بعودة الحياة لذلك الجسد شيئاً من الواقعية والدفء.

تحسين أخبرني أن جنود الاحتلال اعتقلوا أخاه سعيداً الليلة الماضية في قريته. السبب نشاطه في الحملة الشعبية لمناهضة الجدار. لم يعصمه أنه فتحاوي طبعاً. لم ينسَ تحسين منظر الدبابات في رام الله التي ذكّرت الناس بحدود سلطة السلطة.

اليوم زارني ريشارد المتدرّب في معهد غوته. كانت زيارته جزءاً من عمله كمتدرّب. أي أنها مهمة وكّلته بها المسؤولة عنه في المعهد، وفاء. تلك المهمة كانت تتلخص في مرافقتي للتعرف على رام الله باعتبار أنه يقيم فيها منذ شهور. أخبرته بما رأيته حتى الآن في المدينة فقال إن ذلك هو بالضبط كل ما يعرف منها. لذلك فقدت اكتفينا بشرب القهوة عندي وحدثني عن الخدمات الثقافية التي يقوم بها المعهد ثم عن مكاتبه الثلاثة في رام الله والقدس وتل ابيب وعن أهم ما تعلّمه عن ألمان فلسطين واسرائيل، وهو أنهم لا يوحّدهم شيء، لا الهوية ولا الهدف ولا خطة العمل، بل ولا اللهجة الألمانية المستعملة في المخاطبة والنقاش.

١/١٦

خرجت بسرعة من الفندق كي أستطيع ان أسرق من فلسطين أكثر مايمكن أن يسمح به الوقت قبل حلول موعد الأمسية، وأن أحشو به جيوب الذاكرة التي لا تشبع. كنت أسير فاتحاً لا الحواس الخمس على مصاريعها فحسب، بل ومستغلاً كل فرصة تسنح للحديث مع الناس، وقد ساعدني ذلك لأتأكد من أنني في فلسطين فعلاً. وكنت لهذا الغرض أصر على أن أدخل في كلامي جملاً بدت لهم فائضة عن الحاجة من نوع: "هنا في فلسطين"، أو "هناك خارج فلسطين"..الخ.

لكن اللقاء الأول في المعهد أعادني إلى الكاريكاتير الأممي الذي أتقمّصه منذ أربعين سنة: أول حديث كان بالألمانية مع وفاء ومديرها، ثم بالإنكليزية مع كليهما بالإضافة إلى تحسين يقين ومحمد أبوزيد وأحياناً بالعربية مع هذين. يبدو أنني أعديت الجميع بانفعاليّتي فأصبح التفاهم حتى على التفاصيل صعباً. سأل القلب: "لماذا هم منفعلون؟ إنهم يعيشون في فلسطين. ماذا يريدون أكثر من ذلك".

كان العالمان يجلسان أمامي: خمسة أو ستة من ألمانيا وحوالي الخمسة عشر من فلسطين. وكان موضوع هذه الجلسة الأممية كتاب عنوانه "سفر بين العوالم". صاح القلب: "لكنني الآن عائد من ذلك السفر".

جيهان الحلو، التي كانت حاضرة وأصرت بعد ذلك على تعريفي على أحسن محل بوظة في رام الله، نظرت إلى صورة ياسر عرفات التي كانت معلقة على الجدار وترحّمت على أيامه بمزيج من السخرية والألم. كان ذلك ترحّماً على أحلام الشباب في الوقت نفسه، فقد كان صاحب الصورة سدّاً أمام أحلامنا وهاهو يصبح منتهاها.

١/١٨

صدق أو لا تصدق: هذا هو تلفزيون فلسطين. وهو لا يبث من دمشق مثلاً ولا من عمان. بل من فلسطين نفسها. سألت نفسي عندما رأيت البناء الذي يشبه بناية هجرها أهلها بسبب الحرب الأهلية، إن كنّا في الفاكهاني أو في برج البراجنة. هذا الجو الفوضوي مسح فوراً كل ما كان في النفس من توتّر سببه إقدامي على أول مقابلة تلفزيونية في حياتي.

في مكتب ملاصق للاستوديو عدت ثلاثين سنة إلى الوراء. نحن في الفاكهاني في مكتب للثورة الفلسطينية والشباب تدخل وتخرج دون رسميّات. كان ترمس القهوة المرة أول ما رأيت بعد أن سلمت على ثلاثة رجال أربعينيين وأخبرتهم بانطباعي ذاك. كان الرد مخيّبا للآمال. فبدلا من أن يشاركوني سروري بهذه البساطة التي يمكن أن توحي بالتقشّف الثوري أخبروني أن ثمة بناء جديداً يتم إعداده للتلفزيون.

جاءت وفاء بعد قليل. كانت هي من أخبر التلفزيون بوجود ضيف في رام الله لأيام معدودة، وإن كانوا يحبون أن يدردشوا معه ومعها بخصوص المناسبة. ولكن انتظار دورنا طال فأعدنا شرب القهوة للمرة العاشرة وثرثرنا معا ومع الآخرين الذين كانوا محشورين في "مكتب الفاكهاني" ذلك. كنت سعيداً بأن أسمع هذه المرأة تتحدث أخيراً بالعربية، وكأنها "عادت" هي أيضا كما عدت. أحد الموجودين تحدث عن المشاكل

التي تجعل مقاطعة البضائع الإسرائيلية وتشجيع الفلسطينية منها شبه مستحيل. وأخيراً دخلنا الاستوديو.

بعد كلام عن كل شيء ولا شيء قلت في تلك المقابلة أن الفلسطيني في شيكاغو والفلسطيني الآخر في طوكيو يحسّان فوراً

بوحدة الحال عندما يتعلق الأمر بالاحتلال وتحرير فلسطين رغم المسافة الهائلة التي تفصلهما. فلماذا تتناحر فتح وحماس رغم أن المسافة بين رام الله وغزة أقل من ذلك بكثير؟ عندها غيّروا الموضوع. كان الجو التقشّفي للمبنى ولأثاثه قد أوحى لي بفكرة وددت لو سمح الوقت بطرحها. فماذا لو رفضت السلطة الفلسطينية المساعدات الخارجية وأصرت على الاكتفاء بما يدرّه الاقتصاد الفلسطيني؟ ألن يصبح التقشف الإجباري الذي سيتلو ذلك عاصماً من الفساد؟ لكن لا الوقت سمح ولا كان هذا الموضوع مما يهم المقابلين. لكن مسألة المساعدات إياها كانت موضوع جرائد رام الله في كل الأيام التي قضيتها هناك. وبدا لي أن تلك المساعدات هي مصل الحياة لسلطة مريضة.

في الثانية عشرة بدأنا رحلتنا إلى بيت لحم. كان تحسين الجالس بجواري في مقعد الميكروباص يحاول أن يحل ألغاز الجغرافيا والتاريخ والسياسة التي نراها من النافذة. وكان اللغز الأكبر بالنسبة لي هو الذي لم أطرحه عليه للحل: كيف يمكن تجميع الجسد الواحد بعد أن يتقطّع؟ كانت بيت لحم جارة غير بعيدة لرام الله. الحيّة الاسمنتية التي تلتهم الأرض والبشر استطاعت أن تجعل منها مدينة بعيدة تحتاج السيارة ساعة وعشرين دقيقة – في أحسن الحالات- لتصلها. نفس الحيّة فصلت عضواً آخر من الجسد كان أقرب إلى بيت لحم من رام الله بكثير وهو القدس.

العقل يحلّل ويفكك – تماما كتلك الحيّة- يبحث عن أسباب وقوانين. يريد أن يرى الواقع حقيقة. عنده تصبح فلسطين قابلة للتحول لخلية المتحول الأميبي، تتطاول، يصبح لها مائة خصر دقيق، تلتف على نفسها. لكن المتحول الأميبي لا يقص جزءاً من جسده ويرميه. فلسطين أيضاً لا تفعلها، لكن الجدار الإسمنتي له منطق آخر.

بيت لحم، جبل أبو غنيم والقدس والمنطق الثعباني الذي إن لم يستطع أن يقضم الضحية يلتف حولها ليخنقها أو يقطع الشرايين الواصلة بين أجزائها فتنفصل عن بعضها. اختيار التلال التي تتوسط مدناً أو تفصل قرى فلسطينية لبناء المستوطنات جعل من جبليّة فلسطين لعنة بعد أن كانت أجمل ما فيها.

في شقة يدخلك العاملون فيها بجو خلايا النحل يعمل فريق "بديل"، أول من طرقت بابه في بيت لحم. بعد شفّات قليلة من القهوة المرة أحسست أن قلب محمد جرادات مازال يحوي الفلسطين نفسها التي أعرفها.

اكتشفت أن ثمة مكانا قلبياً تماماً كالزمان القلبي الذي لا يسير حسب ساعات المعدن والزجاج. فلسطين القلب هي مكان غير قابل للقص والتلصيق. أذهلني العمل الأرشيفي والبحثي. تمنّيت لو أستطيع حمل نسخة من هذا المركز إلى برلين.

كان الوقت عصراً عندما بدأنا رحلة اكتشاف بيت لحم، تخيّلتها حجراً واحداً هائلاً يتجوف هنا ليصنع بيتاً ويضطجع هناك ليصبح شارعاً. غابة من الأحجار الثرثارة. كل واحد منها يحكي قصة من التاريخ. غير أن حجر الأحجار في بيت لحم هو بلا شك أسامة العيسة.

كان أسامة قد اقتنع لسبب لا أعرفه بأن عليه مهمة تعريفي على كل حجر في بيت لحم ما زال يحمل آثار إزميل فنان فلسطيني قديم. تحسين لم يكن أقل اهتماماً، لكنّه كان أكثر تعباً، تماماً كحالي أنا. لاحظ أسامة ذلك فكانت الرشوة وجبة فلافل مقنعة تماماً كأحجاره. كنّا نتأمل بحجر يحمل بيتا من الشعر تحول إلى عتبة لبيت مهجور عندما بدأ المطر، الذي لم ينقطع تماما منذ ساعات، يرّخ وكأنه يشارك أسامة حزنه على مصير الحجر الأثري ومعه تاريخ بيت لحم. كنت أريد لحزني أن يكون عادلاً. فقد كان سببه المنطقي ينتصب هناك ثعباناً من إسمنت وإسرائيل. لكن السماء أبت إلا أن "تأخذ كتفاً" عن المستعمر فنظرت إليها عاتباً ثم متحدّياً ومضينا رغم ابتلالنا إلى كنيسة المهد.

كان يصادف احتفال الأرمن بالميلاد. وكان الحاضرون قلة. هل هو المطر الغزير وحده أم صعوبة الوصول بسبب تضييقات الاحتلال و"حواسيمه"، نقاط التفتيش في العبرية، أم هي هجرة مسيحيي الأرض المقدسة التي لم تبق منهم إلا الربع أو الثلث؟ بحيث لم تعد تتفاجأ إن رأيت نساءً متحجّبات يخرجن من بيوت نحت على أحجارها صليب قديم في بيت لحم.

تعرفت على تحسين قبل يومين وعلى أسامة قبل ساعات لكن القلب كان يعرفهما منذ ولدته أمه.

من أي أثير تصنع فلسطين زمانا خاصّا بالقلب؟

من أي حرير تنسج فلسطين مكانا خاصا بالقلب؟

١/١٩

ما شاهدته خلال الطريق إلى القدس وما رواه لي المسافرون معي في الميكروباص أعاد صيانة وترميم ما استهلك من مفهوم الأبارتهايد في دماغي.

كان معي من الوقت ثلاث ساعات تفصلني عن موعدي مع تل. قررت الضياع في القدس القديمة خلال ذلك. دخلت في باب العامود وتركت للوادي الحجري – واسمه شارع الواد فعلاً - شبه المستقيم قيادي. تخيّلت نفسي في أسواق حلب القديمة المسقوفة لولا رؤية الرجل الأربعيني ذي السوالف المجدولة والقبعة السوداء. أحسست بتوقف الرغبة في المسير. استندت إلى جدار لأراقب الرجل فإذا به يريد التسوّق بل ويخوض حديثاً مع صاحب دكان فلسطيني شاب بالعبرية. عالجت

انفعالي بكعكة اشتريتها من بائع متجوّل أطلت الحديث معه لأستمتع باللهجة المقدسية. فرح عندما علم أنني لم أر هذا النوع من الكعك إلا في فلسطين. عدت إلى السير تاركاً للقدس أن تقودني حيث تريد. لا شك أنها تعرفت عليّ، إذ كيف يمكن أن نفسّر انعطافي التلقائي إلى سوق القطّانين فإذا بي أنتهي معه بالأقصى، رغم أنها زيارتي الأولى وليس معي خارطة؟ بل كيف يمكن أن نفسر وقوف بائع الكعك هناك بالضبط حيث احتجته ووصولي إلى المقهى ذي المساطب التي دعتني إلى الجلوس بالضبط عندما كنت بحاجة إلى ثلاثة كؤوس من الشاي دفعة واحدة؟

أحسست بنفسي أتسلق التلة إلى الأقصى تسلّقا رغم الدرج الحجري الذي وقف على نهايته رجال شرطة الاحتلال. ساعدني اسمي على الدخول، إذ لا يسمح بذلك لغير المسلمين. أحدهم كان عربياً وقد تولى فوراً الترجمة عندما افصحت عن هويتي العربية. كانوا يفتّشون الحقائب ويسألون عن سبب الزيارة وكنت أبذل المستحيل لتفهّم الموقف. فمن الواضح أن ما كانوا يفعلونه لم يكن بحد ذاته شريراً. لكنني لم أكن أرتكس على ما يفعلونه، ولكن على وجودهم. لم يكن العقل البراغماتي هو الذي يملي علي مشاعري، بل طوبى القلب، ذلك الشيء المجنون. بل وحتى عندما كان الشرطي يتكلم العربية كنت أحس باللغة التي تخرج من فمه تستغيث بي كامرأة تغتصب.

أحسست في الأقصى بأنني أعرف كل قطعة فسيفساء. فسألت عما لا أعرف. كنت أريد رؤية الصخرة. سألت عنها فتطوّع أحد الشباب بتوجيهي إلى باب مغارتها وبدأ بشرح قصّتها مع النبي محمد عندما تصدّى له رجل أربعيني جلس مستنداً إلى عمود هناك وقدم نفسه على أنه من أم الفحم طالباً من الشاب التوقف عن هذا الدجل غير المستند إلى حديث صحيح. أحسست فوراً بأن الشاب المسكين انكسر خاطره دون سبب. فهو أراد أن يعرّف الزائر الغريب بعجائب المسجد لا أكثر ولا أقل. قلت شيئا ما وأسرعت في هبوط الدرج إلى المغارة لأكتشف المكان الوحيد الذي يمكن فيه للإنسان أن يتعبّد دون رعب التاريخ.

قادتني القدس بعد ذلك مباشرة إلى كنيسة القيامة. كنت سعيداً لسبب لا أدريه. نوع من العودة لامرأة كنت تحبها وفارقتها لتكتشف أنك مازلت حبها الكبير رغم معاشرتها كل من هب ودب.

كنت قد تعبت من السير مع حقيبة على الظهر وأخرى في اليد. ولعل الحمل الذي أثقلني أكثر هو هذا الهجوم الشرس من كل ناحية والذي تشنه على حواسك غابة الأديان هذه. إنها أديان من حجر وسلاح. تنظر بعتب إلى أشجار الزيتون التي تقف هناك منذ آلاف السنين وتسألها كيف سمحت لكل ذلك التعصّب بالمرور إلى المدينة وتحجير ما فيها من طرق وبشر.

بحثت عن المكان الذي تواعدت فيه مع تل، وعندما رأيت ثلاثة شباب بثياب تشبه ثياب الشرطة، سألت أحدهم عن المكان فحدث ما أصبح يشبه القانون. يسألني الرجل عن هويتي فأقول أنني فلسطيني فيحيلني إلى زميل له يتكلم العربية. كان المتكلم هذه المرة فلسطينياً مسيحياً كما قال لي. وأكمل بفخر أنه ليس من الشرطة ولكنّه سكيورتي. هذه المرة لم تستنجد بي لغته العربية لأخلّصها من الاغتصاب.

يبدو أنني أثرت حب الفضول لدى الشاب فبدأ يثرثر معي ويصحّح لي لفظ الكلمات العبرية التي كنت أتهجاها على سترة زميله أسمر البشرة، وكانت تعني شرطة. قال هذا له شيئاً ترجمه لي بأن الزميل الأثيوبي يتهمنا بأننا نتحدث العربية قصداً كي لا يفهم علينا. ودّعته عندما رأيت تل قادمة من بعيد. بعد قليل كنا نجلس في مطعم لأرمني فلسطيني أقنعني للمرة الألف بأنه إما أن اسماعيل الأول كان جدّه أرمنيا أو أن "أرمن" الأول كان جدّه عربيا.

"ليست تل من شاحبي الوجوه"، قال لي القلب. استغربت حكمه هذا. لكنّني كنت قد قررت تصديقه. فصدّقته.

بعد السابعة مساء بقليل كان عليّ أن أبدأ تغريبتي التي ستبدأ بتل أبيب. رافقتني تل إلى محطة المكروباصات. وعندما ودّعتني أرسلت لي القدس مرافقاً آخر لم يكن لون وجهه مما يجب تخمينه أو سؤال القلب عنه.

كان الجالس بجواري من قرى نابلس.

لم يكن الطريق إلى تل أبيب فلسطينياً. ولذلك فقد انشغل القلب بقصص عمّال نابلس الذين يبحثون عن مهرّب يعرف جيّداً الأماكن التي تنام فيها الحيّة الإسمنتية فيمكن القفز من فوقها. وعلمت أيضاً من جاري النابلسي: أن تلك الحيّة لها أشواك من معدن أسوأ من الزجاج وأن تلك الأشواك لا تنام. أراني الجرح الغائر في راحة يده. وحدثني عن تلك الليلة الملعونة التي رافق فيها المهرّب إلى تلك الناحية المنخفضة وغير المراقبة من الجدار كي يتسلّقها بحثا عن عمل في الجهة الأكثر احتلالاً من الوطن. وصحيح أن الثعبان كان نائماً لكنّ أشواكه انغرزت في اليد. وانتهى الرجل في المستشفى ثم في السجن بدلاً من العمل.

محطة الميكروباصات في تل أبيب استقبلتني بطريقة غريبة. فقد جمّعت ممثّلين عن كل أقوام الأرض، بيضهم وسودهم وما بينهما. خليط الألوان واللغات هذا لم يكن يناسب الخشبة الرمادية التي عرض عليها. كان المشهد إسمنتيا قابضا للروح. تلفنت لتومر. قلت له: "أنا في إس.." ثم صلّحتها بسرعة: " أقصد أنني في تل أبيب".

لم يطل وجودي في إسرائيل طويلاً، فقد جاء تومر بسرعة وسحبني منها بسيّارته. كان بيته جزيرة صغيرة تم اقتطاعها من كرويتسبرغ البرلينية وزرعها وسط "إس.." أقصد تل أبيب. وبالصدفة كانت تسكن تلك الجزيرة امرأة برلينية خفيفة الظل اسمها ميكه، وهكذا فقد انتقلت هي أيضاً معها. أحسست أن هذا البيت يحاول نقلي بالاتجاه المعاكس. كان الإغراء كبيراً بقدر غربة القلب.

حكى لي تومر قصة والديه، اثنين كانت تعني لهما الصهيونية نقلة روحية وجسدية كاملة، أي نوعاً من الفصام الواعي والمرغوب. مما

جعلهما لا يزوران مسقط رأسيهما في أوروبا الشرقية إلا مرة واحدة يتذكّرها تومر. "كانت زيارة بلا حنين" قال لي. إنه جيل بن غوريون.

كان تومر يحب العبرية، اللغة التي رضعها مع حليب أمه ويتقنها أكثر من الإنكليزية التي يتحدث بها مع ميكه، زوجته البرلينية. وأكثر من الألمانية التي تحدث بها معي، وطبعاً أكثر من العربية التي تعلّمها في الجيش، والتي تحدّثنا بها قليلاً في سيارته. والتي أراد أن يتدرّب عليها معي.

أحسست بشيء من الدفء يعود إلى قلبي. فتشجّعت وخرجت إلى البلكون، أي عدت إلى إسرائيل. وكانت اسرائيل اسمنتاً مسلّحاً وحيّا ذكّرني بحيّ آخر في المصيطبة البيروتية. لولا أنني سمعت لغطاً عبرياً. عدت إلى الغرفة الفوضوية لأسمع سيرة حياة تومر الذي ينبش هذه الايام في وثائق أرشيف الدولة الضخم ليعرف التاريخ الفلسطيني للأحجار التي اقتلعت من

قرانا وبني منها متحف إسرائيلي.

١/٢٠

كانت الخامسة صباحاً. جفاني النوم. وما كنت أنتظر منه غير ذلك. خرجت إلى المطبخ وصنعت لنفسي القهوة. تومر وميكه نائمان في غرفة مجاورة. وفي الخارج تنام إسرائيل.

لكن إسرائيل كانت شديدة اليقظة، في رأسي.

حاولت أن أركّب معنى لهذا كلّه. في الغرفة المجاورة ينام رجل عبري، إسرائيلي ويهودي ملحد. يتكّلم الإنكليزية مع زوجته ويفكر بالاستقرار في ألمانيا فيما لو لم يعد عمله هنا ذا رسالة ما. إلى جانبه تنام امرأة ألمانية ملحدة. تعمل في مؤسسة روزا لوكسمبورغ الألمانية اليسارية التي تحاول مساعدة الفلسطينيين في إسرائيل. تعلمت العبرية هنا لكنّها تفضل التحدّث بالإنكليزية وتخلط كل اللغات عند اللزوم دون أن تدري. وفي هذا الفراش يشرب القهوة الإسرائيلية رجل يحاول قلبه أن يتطهّر من أية لغة غير عربية. أما لسانه فيمارس البغاء اللغوي. في الخارج تحمل معظم اللوحات الاسمية للشوارع أسماء لها علاقة بالتاريخ الصهيوني مكتوبة بنوعين من الحروف: في الأعلى عبري وتحته عربي. أما السوق فهو خال من الحروف العربية. سألت تومر عن المعابد اليهودية التي لم أر أياً منها في تل أبيب فأخبرني أن المرء لا يستطيع تمييزها عن البيوت العادية. لكن هذه البيوت نفسها تكاد تكون بيروتية أو هنغارية.

هل جاءت كل البلدان إلى تل أبيب معاً وتخلّت كلها عن هويتها معاً. كي لا يغضب أحد؟

هل هذا هو السبب بالذات لكون كل إسرائيلي لا يطيق جاره؟ هل هو السبب في هذه العصبية الظاهرة أو المخفية التي شعرت بها طوال هذه الأيام الستة والتي ذكّرتني بالعرب، قومي؟

أم أن السبب هو أنهم قبروا عاطفة الحنين كما فعل أبو تومر وكل الجيل الصهيوني الأول؟

اتّفقت مع نفسي على الصياغة التالية: "هذا النوع العجيب من البشر جلس مع نفسه ذات يوم وقرّر أن يشطب من ذاكرته كل ما كان يعرفه قبل دخوله إلى تل أبيب، بما فيه اللغة. لقد بدأ يتعلم العبرية ويتحدثها في الوقت نفسه. ولأنه حرّم على نفسه لغته الأصلية فقد وقع في حيص بيص فيما يتعلق بالتعبير عن عواطفه المرتبطة بها فشطب هذه العواطف أيضاً. كل شيء يجب أن يخترعه من عدم. وهكذا فهمت سر طرد سكان البلاد الأصليين، ومنهم أبي وأمي، فقد كان جزءاً من خطة الشطب هذه لأنهم يذكرونه بالتاريخ الذي يجب أن يصبح "غير موجود".

إذن أنا مشطوب أيضاً.

وهكذا فهمت سر إصرار قلبي على التحدّث بالعربية.

لكن تومر أخبرني أنه يتحدّث العبرية ولا يستطيع أن يكتب بحميميّة إلا بها. وهكذا فهمت سر مشكلته مع أهله. تومر أعاد للعبرية عاطفيّتها.

أخرجتني ميكه من تأمّلاتي عندما رأيتها تقفز إلى المطبخ يقودها أنفها الذي شم رائحة القهوة. جلست بفنجانها على الصوفة المقابلة وحدثتني عما ينتظرها اليوم من العمل وسألتني عن برنامجنا المشرك، تومر وأنا. قلت لها "القبّاعة".

كان على القبّاعة أن تنتظر استيقاظ تومر من نومه وتلفون رنين، زميلته الفلسطينية التي كنت آمل لا أن ترافقني إلى مسقط رأس أبي وأمي فحسب، بل وإلى كفرياسيف لأرى كيف استطاع بعض من جيل أبي أن يصمد هناك ولأربط عندهم خيطاً أحمل طرفه الآخر معي إلى برلين.

كنت أراجع الخريطة التي رسمتها بنفسي للقرية عندما همهم تومر: "صباح الخير". وخلال الفطور المختصر تلفنت رنين لتعتذر عن موعد الصباح لانشغال ما وتقترح الانطلاق في الثانية بعد الظهر. كنت أسمعه يردّ عليها بالعبرية، وكنت أنتظر أن تطلب الحديث معي مباشرة. كانت هذه بديهية القلب. فقفط هي وأنا فلسطينيّان. لكنّها لم تفعل. نظرت عبر النافذة. كان مزاج السماء سيئاً أيضاً. حتى الشمس لم تكن متحمّسة لزيارة الأرض تلك الأيام فقد كانت تغيب في الرابعة أو بعدها بقليل والسيارة تحتاج إلى أكثر من ساعة ونصف في الطريق. قلت لنفسي: "حتى أنت يا رنين؟" ولتومر: "نذهب وحدنا والآن بعد القهوة".

هل كانت القبّاعة تضحك أم تبكي عندما رأتني قادماً من بعيد بسّيارة يقودها إسرائيلي؟

في الطريق الطويل من تل أبيب إلى منطقة صفد في أقصى الشمال رأيت كل شيء ولم أر شيئاً. وتحدّثنا تومر وأنا عن كل شيء ولم نقل شيئا.

في لحظات صمتي الطويلة كنت أتأمل في "سيّارة العودة" تلك محاولاً أن أحشرها بأيّ طريقة ممكنة في أرشيف المخ الذي رفضها بقسوة بعد أن فشل في إيجاد أي أصل لها في "محفوظاته". كان التعامل مع طائرة العودة أسهل لذلك الدماغ المصدوم رغم أن الطريق برلين-اسطنبول- تل أبيب لم يكن من السهل هضمه. وقد اضطر في سبيل ذلك إلى أن يقرأ: مطار "اللد"، عوضاً عن مطار "بن غوريون"، وهكذا تواطأ مع لعبة القلب رغم أنه بالتأكيد قد كشف طفوليّتها. هنا يقرأ: هرتسليا، نتانيا، أور عكيفا، رمات هاشوفيط ... فيغلق أبوابه آسفاً لخيبتي. هذه الأسماء ليست في الأرشيف كما أن أشكال المركبات المؤرشفة كناقلات للعودة لا تتطابق أبداً مع هذه السيّارة.

قررت أن أفتح أرشيفاً جديداً وأن يكون هذه المرة متعدد اللغات. وكان اليوتيوب في برلين قد بدأ في تعليمي اللغة التي أراها هنا في كل مكان والتي هي اللغة الأم لتومر رغم أنها ليست لغة أمّه. أمّ تومر اختارت فصامها الواعي وأعدمت طفولتها. أما أنا فأسير بالاتجاه المعاكس تماما.

هل أسير بالاتجاه المعاكس فعلاً؟ هل يقودني تومر في هذه السيّارة إلى طفولتي؟ لقد ولدت في سحم الجولان السورية وقد سمعت أذناي الطفلتان اللهجة القبّاعية مع الحورانية ثم الدمشقية. وتعلّمت السباحة في نهر يزيد الذي هو أحد فروع بردى حيث كدت أغرق عدة مرّات بسبب التيّار لولا تشبّثي بأغصان شجرة تين هائلة تحرس مقام أحد الأولياء هناك. وقد دخلت القباعة طفولتي متأخرة سنتين.

منذ أن بدأتا بتمييز الكلمات سمعت أذناي كلمتين اعتبرتاهما مترادفتين: "لاجئ" و"القبّاعة". الأولى منهما ستصبح في سن المدرسة سبباً لمعارك بعضها بالاحجار والمقاليع ضد أطفال فلاحي القابون، القرية التي يمر بها نهر يزيد، أما الثانية فقد كانت فقرة إلزامية في كل حديث صباحي بين أمي وأبي في تلك الساعات المبكّرة بينما يعدّ هو القهوة ثم يشربانها وكلّ يروي لصاحبه ما رآه من القبّاعة في منامه.

القبّاعة لا تنتمي إلى طفولتي البصرية إذن. فتلك الصور المنطبعة في الذاكرة عن عين المقلد وقناطر بيتنا الحجرية هي من عمل المخّ الذي لا يستطيع تخيّل ما يسمع دون أن يجسّده في صور. هل هي جزء من الطفولة السمعية فحسب؟ وماذا نفعل بالطفولة الجلدية؟ فالجلد هو من استقبل أحجار أطفال القابون وسياط زبانية التعذيب في المخابرات السورية. وأخيراً أين سنصنّف هذه الجملة: "حسين..من القبّاعة قضاء صفد" التي كانت تصف "مكان الإقامة الدائم" لتفريقه عن "مكان الإقامة المؤقت" الذي كان يتغير في كل مرحلة من العمر. وهذا لم يكن مطبوعاً في الهوية الشخصية فحسب، بل وفي القلب أيضاً. هل سنصنّفها تحت الطفولة اللسانية أم الطفولة الورقية أم الطفولة القلبية؟ لماذا لا أريّح نفسي وأختار طفولة من تراب وماء ككل الناس فأقبّل يديّ من يملك قرار السماح لي بزيارة سحم الجولان والقابون؟

لماذا فشلت هاتان القريتان بالانطباع في قلبي ونجحت القبّاعة التي لم أر منها حجراً واحداً؟

كانت السيّارة قد وصلت إلى نهاية المرحلة التي كنّا متأكدين منها بعد مقارنة خريطة اسرائيلية حديثة جداً بأخرى عمرها خمس سنوات. كان اللجوء إلى هذه الخريطة القديمة التي وضعها فلسطيني اسمه سلمان أبوستّة ضرورياً لأن الخرائط الإسرائيلية لا ترى شيئاً اسمه القبّاعة.

بدءاً من هذه التلّة، يمكن أن يكون أي حجر قبّاعياً. استبدلت السيارة بالقلب، والخريطة الورقيّة بخريطة الطفولة السمعيّة. عيناي عمرهما الآن دقيقتان. أحسست بجوعهما الجبّار. كيرقة عليها أن تلتهم من الغذاء بساعات ما يجعل جسدها يافعاً لتستطيع أخيراً الطيران كفراشة. كانتا تلتهمان كل ورقة زيتون وترسلانها فوراً إلى أرشيف الذاكرة. لاشك أن هذا الطريق جديد، فالطريق الوحيدة التي كانت تصل القرية بصفد تمر من وراء الوادي. على التلة المجاورة كانت تنتصب مستعمرة لا شك أن سكّانها هم من أرسل بقرهم يرعون في أرض القبّاعة. بل إنهم من الوقاحة بحيث بنوا سوراً منخفضا حول القرية اضطررنا إلى فتح ثغرة في أسلاكه الشائكة لندخلها. زيتون قديم، بقر يرعى في كل مكان، حشائش وأعشاب وصخور.

نعم هذه هي الأودية الأربعة التي تحدّث عنها عبدالله الرفاعي وهذه هي "الصّيرات"، ولكن أين بيت جدّي الحاج حمّادة ذي القناطر؟ صحيح أنني أعرف من ذاكرتي السمعية أن عصابات الصهاينة نسفت القرية في الثمانية وأربعين وأكمل لصوص آخرون العمل فنهبوا كل شيء ثم دمّروا آثار نهبهم، ولكن أين هي الأحجار؟

كنت أتخيّل أن أطلال بيوت الرفاعية والشواهين وعبد الغني والمحاحي وجماعتي المصاروة والحجّاج ستصيح بي من بعيد قائلة: "ميّل عليك الجيرة" وأن أهلها سيتنازعون على شرف إكرام الضيف الذي غاب طويلاً وعاد وسيمطرونه بالأسئلة عن حال الأولاد ولماذا لم يحضرهم معه ليتعرفوا على ديرة الآباء والأجداد.

لم يصح أحد. فالأحجار نفسها سرقت.

انشغل تومر معي في البحث عن أساسات البيوت المنسوفة. وانشغل أنفي ويداي بالزعتر البرّي. عرّفت تومر على الخرفيش والعلت وكيف تؤكل. وأخيراً عثرنا على بئر سدّه جزئياً لوح من إسمنت يبدو وكأنه وقع عليه بفعل هزة أرضية. هناك استطعنا أن نرى أساسات لا شك فيها لبيت من حجر.

كانت تحنو على البئر شجرة تين ضخمة. ناولت الكاميرا لتومر. استندت إلى الشجرة وانفجرت بالبكاء.

لست أدري لماذا جنّت هذه السماء فجأة. صحيح أنها بدأت تمطر قبل أن ندخل القباعة. لكنّه الآن لم يعد مطراً. إنها مدافع مائية لم تجد عدوّاً لها سواي والمسكين تومر. كنت مصمماً على البحث عن قناطر

الحاج حمادة وعن معاصر الزيتون وعلى معانقة مياه عين المقلد وعلى وعلى. لكنني الآن أتصبب ماء وحقداً. كدت أقول لتومر أنظر ماذا تريد السماء فهي تتحدث اليوم بالعبرية. عدنا إلى السيارة خلال الضباب الكثيف الذي كاد يحجب عني قبّاعتي. قال لي تومر شيئا لكن البكاء المخنوق منعني من الرد. كنت أعرف أن هاتين العينين اللتين تبكيان ليستا لي. إنهما لأبي أرى فيهما قبّاعته التي مات يبكيها. لكن تلك كان فيها بيوت وقناطر ومعاصر. ماذا كان سيفعل المسكين لو رأى ما فعلوا بقبّاعته؟

كان أول ما قاله تومر في السيّارة: "هل تسامحني؟ إنني أيضاً من أولئك الذين حرموك من القباعة".

١/٢١

- كيف أصل إلى يافا؟ سألت تومر.
- تسير في الشارع الرئيسي نفسه شمالاً. عشر دقائق أقصى حد.

سرت شمالاً. كنت أتخيّل أن لوحة ما ستفاجئني ترحب بالقادمين إلى يافا. كما هو الحال عندما تدخل أية مدينة جديدة. لكن يافا أرسلت لي ما هو أبلغ من لوحات المدن جميعها. طفل أسمر يركض خلف ولد وبنت أكبر منه قليلاً وينادي:"استنّوني". سألت الولد لماذا لا ينتظر أخاه. فإذا بالبنت تسألني إن كنت عربياً. انتبهت إلى الخطأ نفسه الذي ارتكبته في رام الله وهو حقيبة الظهر شبه السياحية. علمت من الصغار أنني منذ الآن في يافا العربية وأرشدوني إلى طريق البحر الذي لم يعد بعيداً. كنت أحاول قراءة الحروف العبرية واختراع معانٍ لها. فجأة اختفت الحاجة إلى عملي التأويلي ذاك. إنها ببساطة أسماء عرب أولاد عرب. دخلت إلى واحد من تلك المحلات. وطلبت بالعربية صحن فول مؤكّداً على "فحل البصل" والشطة. بعد قليل دخل صاحب المطعم. سألته وأنا أشير إلى لائحة الطعام عن الذنب الذي ارتكبته اللغة العربية ليتم إعدامها بهذا الشكل. فكل ما في اللائحة كان بالعبرية ثم بالإنكليزية. ولا كلمة عربية، رغم أن الوجبات كلها عربية. ضحك الرجل وكأنني سردت عليه نكتة. طرحت السؤال نفسه في سوبرماركت صغير كانت البائعة فيه محجّبة والعاملون سمراً ذوي ملامح فلسطينية. كان الرد أن الناس هنا تكتب بالعربية.

قررت أن أستمر في المشي حتى أعثر على محل واحد يحمل إسماً مكتوباً بالعربية. وكان الاسم مفاجئاً: "مقهى باب الحارة" وبالعربية فقط.

١/٢٢

أفقت مع الديك الأول في القدس لكنّني لم أكن بنشاطه. عادت صور اليومين الماضيين، إن كانت قد غادرت أصلاً. تقلّبت في الفراش، وتقلّبت معي قبّاعتان لم أعد أعرف إلى أيّهما أنتمي.

كانت تل، التي قابلتها أمس بعد وصولي إلى هذا الفندق المقدسي، قد دارت بي في الليل حول المدينة التي كانت لعنتها الكبرى أنها مقدّسة. على إحدى المصاطب المطلّة على المدينة رأيت شاباً وشابة ذكّراني بأيام المراهقة. كدت أغض الطرف لولا أنني لاحظت في الظلام شيئاً أثار دهشتي. سألت تل إن كان الشاب يحمل بندقية فعلاً أم أنه الظلام يجعلني أرى ما هو غير موجود. أخبرتني ببساطة أن الشاب مستوطن يهودي وأنه من الطبيعي أنهم يتحرّكون هنا بسلاحهم، حتى ولو كانوا في مشوار غرام. سألتها عن مشاعر الفتاة في مثل هذا الموقف. هزت تل كتفيها وقالت: من يدري ربما تجد ذلك سكسيّا. اختفى المستوطنان ليحتل المشهد خمسة من المراهقين العرب. كانوا يتشاجرون. نظرت بفضول. كان أربعة منهم يهاجمون الخامس. سألت الشباب إن كانوا لا يخجلون من هذا العيب فلما تعنتّوا طلبت منهم ببساطة أن "يمسحوها في هذا الذقن الختيار". فذهبوا، ربما ليكمنوا في أول منعطف. وعندما ظل المعتدى عليه وحيداً سألته عن سر الخصام وعلمت أنه الحشيش.

كنّا متواعدين اليوم في الشيخ جرّاح. فقد كان جمعة. وككل جمعة يجتمع حوالي المائة من بقايا جماعات السلام الإسرائيلية مع مجموعة أخرى من العرب ليعلنوا تضامنهم مع ضحايا المستوطنين في الوادي المقدسي الصغير الذي أصبح شهيراً في العالم أجمع. قبل ذلك درنا قليلا في الوادي. الأعلام الإسرائيلية التي انتصبت على بعض البيوت كانت أكبر ما رأيت من أعلام في حياتي، عدة أمتار طولاً وعرضاً. سألت مرافقتي فقالت: مستوطنون في بيوت محتلّة.

كانت المظاهرة مناسبة لرؤية الكثير ممن كنت أقرأ أسماءهم في الجرائد. كيوري أفنيري ومحمد بركة. اثنان من الأطفال ذوي الملامح الفلسطينية كانا يرفعان لافتة ضد الاستيطان وكان كل من هما يجلس على برميل مرتفع مما جعلني أسألهما عن هذا التكنيك الذكي وإن كانا يستطيعان قراءة ما على اللافتة: لا ولكنها تقول أن القدس عربية، كان ردهما. عرّفتني تل على ابنها الذي كان في أحد جوانب المظاهرة. زوجها كان في الناصرة. "أمير" يدرس اللاتينة والإغريقية، شخصية حالمة وقريبة جداً إلى القلب. رأيت أباه الناصري في عينيه، لكن أمه كانت في كل خلاياه الأخرى. هذه الأم لم تلبث أن سحبتني بعيداً قبل ربع ساعة من انتهاء المظاهرة. كان عملاً أمومياً بلا شك. فقد علمت من الصحف أنهم اعتقلوا خمسة عشر بعد هروبنا.

١/٢٣

كان الفندق في وادي الجوز. قادتني خريطتي إلى الشيخ جراح ثانية. سألت نفسي عن سر السحر الذي يمارسه علي هذا الوادي الصغير. والذي جعلني أزهد بباقي القدس. هل كنت أرى فيه قبّاعة جديدة تعيش الآن بالذات الثمانية وأربعين الخاصة بها؟ هل كنت أريد أن أقول لكل عربي هناك: تكفينا قبّاعة واحدة؟

على كتف الوادي صادفت شاباً لم يبلغ العشرين بعد، على ما خمّنت. سلّمت وسألته عن أحوال الحيّ. نظر إلي بشك وسألني عن هويّتي وسبب اهتمامي بالقضية. قلت دون تفكير طويل: صحفي. ولم يطل ندمي على هذا الجواب المتسرّع، فقد طلب مني الشاب هوية الصحافة. ولم يفد القول بأنني صحفي غير محترف! وقد تطلّبت استعادة ثقة الفتى كثيراً من العناء، إضافة إلى إبراز هويتي الشخصية التي كان لها تأثير إيجابي لا أعرف حتى الآن سببه. أخيراً وافق عماد على مرافقتي إلى خيمة العائلة التي طردها المستوطنون.

منظر الخيمة والعائلة التي تتناول فطورها "في الطبيعة" أي على جانب الطريق، وهي ترى في الوقت نفسه بيتها أمامها مباشرة على الجانب الآخر من الطريق نفسه وهو مغطّى تماماً تقريباً بالأعلام الإسرائيلية، كان أبلغ من أي كلام. سلّمت على ناصر الغاوي، الرجل الضخم الملتحي، وقدمت نفسي وصاحبي. دعاني الرجل إلى المشاركة في صحن الفول الهائل الذي تكالب عليه ستة أشخاص على الأقل. فاعتذرت بأنني سبقتهم وهكذا دخلنا في الموضوع.

ناصر الغاوي هو الحلقة الأخيرة من سلسلة سكان هذا المنزل المستباح وقد قص علي قصته ما بين لقمة الفول والأخرى:

بدأت القصة ١٩٤٨ بلجوء عائلة من صرفند و"استقرارها" في خيمة فيما عرف يومها بمخيم الشيخ جراح، حيث عمل ربها لدى بيت الحسيني. بعد ثماني سنين "سلّم" الرجل "كرت الإعاشة" مقابل هذه الوحدة السكنية المجللة أمامنا الآن بالأعلام الإسرائيلية. كان الشرط هو أن تحول الملكية للرجل بعد دفع إيجار رمزي هو شلن في السنة لمدة ثلاث سنوات. هذا ما حدث فعلا وتحوّلت الملكية فعلاً في الطابو الأردني بدءاً من ١٩٥٩. بعد الاحتلال الإسرائيلي لم يتغير الأمر كثيراً إلى أن جاء المدعو سليمان حجازي عام ١٩٩٠ وأبرز طابو حقيقياً بثمانية عشر دونماً، يعني كل الوادي الصغير، مدعياً أنه المالك الحقيقي، لكنّه أقر الساكنين في بيوتهم. هذه الملكية سيثبتها المحامون بعد ذلك فعلاً من خلال البحث في سجلات الطابو التركية. المشكلة الحقيقية بدأت بموجات المستوطنين الجدد بعد ضم القدس الشرقية إلى الغربية. بدأ المستوطنون محاولات الاحتلال الفعلي المتوازي مع المعركة القانونية أمام المحكمة. هذه المعركة الأخيرة مرّت بثلاث مراحل: ٢٠٠٢ ثم ٢٠٠٦ وأخيرا ٢٠٠٨. المستوطنون أبرزوا أوراق ملكية مزوّرة تزويراً متقناً وتاريخ الملكية فيه يسبق تاريخ الطابو العربي، وقد قبلتها المحكمة طبعاً وأعادت أمر إخلاء كانت قد أصدرته سابقاً ثم أوقفت العمل به، وهكذا فقدت عائلة الغاوي وسبع عائلات أخرى مأواها.

خلال هذه الفترة الطويلة حدث الكثير، فقد "باعت" الجمعية الاستيطانيّة الأولى البيوت إلى جمعية ثانية ثم أخيراً "لنحلات شمعون" وتشكّلت "لجنة الشيخ جراح" التي أوصلت الخبر إلى سفارات الدول الأوربية والأمريكية. أما السلطة الفلسطينية "فموقفها" يمكن إيجازه بما يلي: "فش مصاري والوضع صعب". بعد ذلك سأسمع آراء أخرى بخصوص دور السلطة. أحدهم أشار بيده إلى بناية رأيت عليها شارة الهلال الأحمر وقال لي أن الهلال اشتراها لإنقاذها من المستوطنين الذي عرضوا ثلاثة أضعاف ثمنها. آخر لم يشكّك بنزاهة السلطة وعدالتها في توزيع المساعدات فقط، بل اتهمها بالتعاون مع الأمن الاسرائيلي.

سألت الرجل إن كان ثمة أي اتصال مباشر بعائلات المستوطنين الذين احتلّوا البيت. فأخبرني أنهم لا يعتبرون أنفسهم محتلّين، فهم استأجروا البيت من "الجمعية" كأي مستأجر آخر لكنّهم يتجنّبون أي احتكاك أو تواصل. أخيرا فكل العائلات المطرودة من بيوتها تنتظر أن تربح واحدة منها فقط قضيّتها أمام المحكمة. فهذا بحد ذاته سيصبح سابقة قد تغيّر كل مجرى القضية. لكن العرب يخسرون ٩٥٪ من قضايا ملكية الأرض أمام المحاكم الإسرائيلية عادة، قال الرجل بأسى.

خلال هذا الوقت جاء صحفيان ألمانيان ترجمت لهما ما سمعت. وكنت أستعد لتوديع العائلة عندما علت أصوات غاضبة من أول الشارع. "قطيع مستوطنين" قال أحد الشباب، وما لبث أن انخرط مع اثنين آخرين بالرد عليهم. سألتهم أن يترجموا لي الرد فاعتذروا بوجود زوجة ناصر الغاوي بيننا. ففهمت طبيعة "الحوار"!

ليس بعيداً عن خيمة آل الغاوي كانت مجموعة من اليهود المتديّنين تزور مغارة يقدّسونها يسمّونها "مغارة شمعون". دفعني حب الاستطلاع لاقترب منها قليلاً. انتبهت إلى أن واحداً من المستوطنين المتدينين يرمقني بشك ثم لم يلبث أن سألني بغلاظة عما أفعل في هذا المكان. كدت أسأله بدوري عما يفعل هو، لكنني اكتفيت وقلت إنني صحفي. قال بلهجة قاطعة أنه لا يحب الحديث مع الصحافة لكنّ شيئا يجب أن يعرفه العالم كلّه وهو أن كل شيء هنا هو يهودي وسيبقى كذلك. سألته عن الفلسطينيين فقال ببساطة: "يجب أن يذهبوا إلى البحر".

تجاوزنا المغارة صاعدين كتف الوادي إلى حيث ينتصب علم إسرائيلي ضخم، وهي علامة "النكاية" إياها. لفتت نظري مجموعة جميلة جداً من الورود أمام منزل صغير يحمل اسماً عربياً. قرأت "خليل الفرحان" فقررت الدخول. فإذا بي أمام مأساة فلسطينية جديدة. بيت مؤلف من غرفتين يسكنه ثمانية عشر نفراً منهم ابنتان عاجزتان ووالد مصاب بالاحتشاء فضلاً عن أمراض قلب وكلى أخرى، وهو مهدد أيضا بالإخلاء.

أحسست أن قبّاعتي الجديدة أصبح اسمها "الشيخ جرّاح".

في المساء عدت من القدس إلى يافا لوداع البحر الفلسطيني. ومن هناك تلفنت لتومر فدعاني إلى المقهى الذي يسهر فيه مع ميكه. ذهبت.

وكان مقهى شبابياً ذا مسحة فوضوية. هنا يختفي الاحتلال، تختفي إسرائيل ومعها فلسطين. هكذا كدت أظن وخاصة بعد أن بدأنا نحن الثلاثة نخطط لعصر جديد يشبه أحلام باكونين، ليس فيه دول ولا شرطة ولا دبّابات. إلى أن أبدت جارة لنا في المقعد العريض انزعاجها من ضحكنا العالي ولم يفد معها أي نقاش. كانت تكتب على اللاب توب. لم نغير من موجة صوتنا. كنت محقوناً وأحتاج إلى الانفجار. بعد ساعة أغلقت المرأة العصبية حاسوبها، أعطتنا ظهرها وبدأت بالرقص وحدها، مع النافذة.

وكان الوداع في المنزل عاطفياً فعلاً. قال تومر أنه وجد أخيراً أن عمله مع زوخروت قد يكون رسالته في الحياة، أو جزءاً منها. قال لي: ها أنت الآن قد رأيت القبّاعة، هل ستعود؟ قلت له وكأن العودة تنتظر رأيي: طبعاً. ميكه أهدتني كتاباً بالعربية عنوانه: اليسار الفلسطيني إلى أين. لم أجد ما أعبّر به عن شكري غير نسخة من كتابي بقيت في الحقيبة. كتبت عليها الجملة التالية من باب الإهداء: إلى تومر، خطوة أولى على طريق العودة.

٢٠١٠/١/٢٤

الساعة السابعة صباحاً. أكدّس أشيائي في الحقيبة بشيء من الجنائزية وكثير من التعب بسب عدم النوم، إلى أن أعثر في كيس صغير بجانب الكتب على حجر صغير و شتلتي زعتر برّي كنت أحضرتهما من القبّاعة. هنا يتوقّف الزمن قليلاً. أو لعله يعود ستاً وخمسين سنة تماماً، هي عمري.

ترى من قال إنني غادرتها؟

حسين شاويش
برلين
٢٠١٠/٢/٢٨

سِدِق – مجلة النكبة التي لم تنتهِ، العدد ٦، أيار ٢٠١١
نحوَ عودة لاجئين فلسطينيين

هيئة التحرير: عوفر كهانا، أُسنات بار- أور، أيوب أعمر، نورمه موسي، إيتن برونشطين، تومر جردي، عمر الغباري
المحرر: تومر جردي
تصميم: عوفر كهانا وأسنات بار- أور، فرهسيه
إصدار: جمعية "زوخروت" (ذاكرات)
تحرير لغوي وتنقيح: عمر الغباري

الناشران: فرهسيه، زوخروت